مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 49 (شتاء 2002)، ص 131

كتب بالعبرية

نهاية حكم النخبة الإسرائيلية*
(كيتس شلتون هأحوساليم)

باروخ كيمرلنغ

القدس: كيتر، 2001. 124 صفحة.

يعالج كتاب باروخ كيمرلينغ الجديد، الذي يصدر بموازاة كتابه المهم: The Invention and Decline of the Israeliness: The State, Society and the Military (University of California Press, forthcoming 2001) [″اختراع وسقوط الكينونة الإسرائيلية: الدولة والمجتمع والعسكر″] موضوع انهيار النخبة الإسرائيلية. يطلق كيمرلينغ على هذه النخبة، بوحي من مصطلح Wasp الأميركي، صفة رائعة هي ″أحوسال″: كلمة مركبة من أوائل حروف الكلمات العبرية: أشكنازية، علمانية، اشتراكية، عصبية قومية.... هذه هي الخصائص الأيديولوجية والثقافية للنخبة الإسرائيلية.

من الممكن طبعاً أن تكون غير أشكنازي وتنتمي إلى هذه النخبة (أ. ب. يهوشواع هو النموذج لهذا المسعى). ومن الممكن أن تكون متديناً وتنتمي إليها (أبراهام بورغ كوّن رصيده السياسي الكبير بفضل هذه الخاصية المزدوجة). ومن الممكن طبعاً، كما كانت الحال منذ عدة أعوام، أن تكون غير اشتراكي (أمنون روبنشتاين، وتومي لبيد) وتنتمي إليها أيضاً. وللحقيقة فإن كيمرلينغ يوافق على أن العضو في هذه النخبة كان لفترة طويلة ليبرالياً، واليوم، وخصوصاً منذ أن فكك حاييم رامون الهستدروت بإيعاز من يتسحاق رابين، بات هذا العضو محافظاً محدثاً (neo conservative) بكل معنى الكلمة.

يصدر مؤلَّف كيمرلينغ في إطار سلسلة يعود سبب إصدارها، أو تفسير نجاحها إلى أزمة حكم النخبة الأحوسالية. وفي خضم هذه الأزمة العميقة، التي اكتسبت زخماً خلال السنة الأخيرة وبحجوم مروّعة لم نحلم بها، أي الحرب الشاملة ضد الكفاح الفلسطيني من أجل التحرر الوطني، نجد هناك اهتماماً متزايداً بها من جانب ″حراس الأسوار″ [الذين يحاولون تفسيرها بمصطلحات

---

* مترجم عن العبرية من موقع صحيفة ″هآرتس″ (2001/10/1) في الإنترنت:
http://www.haaretz.co.il/hasite/objects/pages/PrintArticle.jhtml

اجتماعية أو جغرافية أو اقتصادية]. وتعاظم خلال السنة الماضية أيضاً اتجاه الاهتمام النرجسي بـ"أنفسنا" – هناك عدد من الكتّاب، ممن تحقق كتبهم أرباحاً طائلة، يعيش من هذا الاهتمام.

إن ميزة مناقشة كيمرلينغ تكمن في كونه يربط نهاية حكم النخبة الأحوسالية بالبنى التي أقامها أرباب هذا الحكم أنفسهم. والمقصود بذلك طبعاً هو، في الأساس، الاحتلال وتوسيع الاستعمار الاستيطاني. ويجب ألاّ ننسى أن شمعون بيرس ويغآل ألون وموشيه دايان – على التوالي وبالأسلوب الماكر لكل منهم – كانوا هم الذين بدأوا هذا المسار الرهيب. ويصف كيمرلينغ إنشاء غوش إيمونيم بأنه أعمق وأخطر شرخ أصاب هذا الحكم، على الرغم من العلاقة الرمزية الوثيقة بين عالم غوش إيمونيم وعالم النخبة الأحوسالية.

إن كيمرلينغ ليس يسارياً، بحسب المفهوم الذي كان متبعاً لتعريف أعضاء اليسار حتى سنة 1967، أي أعضاء حركة العمل والمعسكر الاشتراكي. وفي مرحلة معينة حدث تحول. إن مؤرخاً محافظاً كيعقوب تلمون يعتبر "يسارياً" لأن ما كان مدرجاً في جدول الأعمال، على الأقل منذ سنة 1967، هو النقاش بشأن الاحتلال. وهنا على صفحات هذه الصحيفة نشر تنبؤاته التي تتحقق يوماً بعد يوم. وفعلاً. كما يشير كيمرلينغ، أصبح التماثل بين الأحزاب الاشتراكية – الديمقراطية الحاكمة والمشروع الصهيوني لا مجرد مسألة ثقافية أو عاطفية، بل أيضاً مسألة أيديولوجية عميقة. إن عالم حزب العمل لم يتسامح، في أي وقت من الأوقات، مع مفهوم التعددية. والمجهود الكبير الذي وظفته هذه الحركة في بناء تجانس في المجتمع الإسرائيلي أدى إلى نتائج مريرة. ولم يقتصر الأمر على تحول التمرد ضد هذه الحركة إلى تجمع قوى ضخم لليمين الإسرائيلي، بل إن روح حركة العمل أنتجت، منذ بدايتها تقريباً، قيماً عنصرية.

كانت أنيتا شابيرا أول مؤرخة تشير إلى تطور مفهوم "العمل العبري" والتناقض بينه وبين القيم الاشتراكية. وليس أدلّ على ذلك من الشباب اليهود الاشتراكيين المتغطرسين الذين كانوا يقلبون عربات الباعة الفلسطينيين في شوارع يافا في الثلاثينات. وفي هذا الصدد، اعتبر زعران غوش إيمونيم، الذين كانوا يعيثون فساداً في سوق الخليل، أنفسهم حملة المشعل الذي "ألقته" الشبيبة الأحوسالية.

يعتبر كيمرلينغ عملية الاستعمار الاستيطاني، التي بدأت في رأيه سنة 1973، نقطة التحول بالنسبة إلى حركة العمل. فمنذ ذلك الحين، تمحور النقاش العام والاصطفاف السياسي والرمزي حول "المناطق أو السلام" فقط. وكان ذلك هو المقياس الوحيد الذي يصنف بموجبه المرء يسارياً. وفعلاً فإن هذا العمل الاستيطاني، الذي قضى على أي أمل بالتوصل إلى تسوية قائمة على دولتين لشعبين، قد تم بدعم من حركة العمل، مع تحفظ واحد: عدم فقدان الأكثرية اليهودية في دولة إسرائيل، مهما تكن حدودها الجديدة. هكذا، فمنذ اللحظة التي نمت فيها الأكثرية اليهودية

(بفضل الهجرة الجماهيرية من الاتحاد السوفياتي سابقاً)، وظهر في الأفق إمكان لحصر الفلسطينيين في جيوب (اتفاق أوسلو)، إلى جانب زوال الاتحاد السوفياتي كعامل توازن ضد التوسع الأميركي، انضم الحمائم بجموعهم إلى الإجماع الذي يقوده "العمل" أحياناً والليكود أحياناً أُخرى، ودائماً برئاسة زعيم من النخبة الأحوسالية.

يصف كيمرلينغ التحالفات التي تقيمها النخبة الأحوسالية من حين إلى آخر وصفاً صحيحاً. وهو ينجر وراء وصف العلاقات الثقافية (مثلاً، الصلة بين غوش إيمونيم وحركة العمل). وبحسب رأيي فإنه لا يلاحظ أن هذه التحالفات ضد الفلسطينيين، وضد المتدينين الحريديم، وضد الشرقيين (شاس)، تشكل مجتمعة معركة يائسة تخوضها النخبة الأحوسالية للمحافظة على هيمنتها. يكفي أن نذكر المعركة الغربية التي نشبت بشأن تعيين رئيس أركان جديد: موفاز ضد فيلنائي، أو صدمة التي حلت بـ"جماعتنا" عندما انتخب موشيه كتساف (لا شمعون بيرس) رئيساً للدولة، كي نفهم أن النخبة الأحوسالية – التي لم تهتز هيمنتها قط على الصعيد الرمزي – ترفض إخلاء الساحة.

هناك أمثلة أُخرى، مسلية بدرجة أقل، ويذكرها كيمرلينغ ذكراً عابراً: المعركة بشأن صورة المحكمة العليا. كانت تلك معركة "أحوسالية" بكل معنى الكلمة. وفي هذه المعركة حظيت المحكمة العليا بأوصاف لا تستحقها. ولا يتوقف الأمر على أن تركيبتها أحوسالية بشكل استفزازي، بل إن الأعمال القانونية التي تولاها أعضاؤها قبل التعيين المنشود لمنصب قاضي محكمة عليا لم تشمل، في أي وقت من الأوقات، اجتياز الطرقات الموحلة خارج البرج العاجي المقدسي. لم يمض أي منهم وقتاً، حتى كقاضي استدعاء أو كمحام جنائي، مع فئة السكان غير الأحوسالية الضخمة، التي يبتون في شأن حبسها بصفتهم الهيئة القضائية العليا. وعلاوة على ذلك، عندما يتعلق الأمر بمسائل دستورية لها علاقة بـ"القبيلة الديمقراطية ضد القبيلة غير الديمقراطية"، تتصرف المحكمة العليا كأنها أنشئت من قبل منظمة هشومير، وترتعد يد القاضي، كما قيل لنا، كلما تعين عليه الاعتراف بحق الديراني وعبيد، المعتقلَيْن من دون محاكمة، في مقابلة مندوب الصليب الأحمر، أو الاعتراف بحق شخص عربي ابن البلد منذ ثمانمئة عام في السكن في بلدة محظور دخولها على العرب.

وخلافاً ليهوناتان شابيرا، الذي ألف كتاباً ممتازاً عن سقوط حركة العمل، وزئيف شطرنهل، الذي لم يتمكن في أي وقت من الأوقات، لدى قيامه بعملية تصفية حسابات غاضبة مع شوفينية حركة العمل، من فهم طبيعتها الاستيطانية المناهضة للاشتراكية في جوهرها، فإن كيمرلينغ فهم في كل أبحاثه، منذ كتابه الرائد *Zionism and Territory* ["الصهيونية

والأرض"] (1983)، الذي شكل انطلاقة لما وصفه بِني موريس لاحقاً بـ"التأريخ الجديد"، العلاقة بين سيطرة الأحوساليم على الأراضي وبين سيطرتهم على الدولة وما يحيط بها.

من المهم أن نذكر، في هذه الأيام، أن كثيرين جداً من الأحوساليم (أصدقائي وإخواني، زملائي في الناحل [الشبيبة الطلائعية المحاربة] والجامعة، محبي موزار ومطربي غفعطرون) مرتبكون من شدة "البلبلة". إن العلاقة بين توسيع مساحة الدولة وانهيار الأحوساليم علاقة حتمية. ليس في الإمكان إدارة دولة ديمقراطية لليهود توجد فيها عداوات كثيرة إلى هذا الحد من دون إقامة تحالفات لأغراض محددة بهدف صد مطالبات (إقليمية وثقافية واقتصادية) دائمة. وأمثلة لذلك: من أجل التوصل إلى تسوية أوسلو (من دون أن نناقش الآن الأهداف النهائية للتسوية: السيطرة على المياه والطرق والحواجز) حاول رابين إقامة تحالف مع العرب مواطني إسرائيل. وهذا التحالف كلّفه حياته في نهاية الأمر. من جهة أُخرى، أقام رابين تحالفاً مع شاس. لكن شاس أثارت معارضة قوية من جانب قسم كبير من الأحوساليم. ومع أن ميرتس، الحركة ذات الطابع الأحوسالي الأكثر وضوحاً، تعاونت مع شاس وحاييم رامون على تفكيك الهستدروت، إلاّ إنها بنت رصيدها السياسي، خلال الأعوال الثمانية الأخيرة، على التحريض ضد شاس والمتدينين الحريديم، "ألد أعداء الأحوساليم"، حتى نشوب الانتفاضة.

وفي هذا الصدد، فإن فشل براك الذريع كقائد سياسي كان دليلاً على العمى الأحوسالي. إن براك كان قد انتهى أمره قبل ذهابه إلى كامب ديفيد بوقت طويل. ولا يقتصر الأمر على أن غطرسته أنسته حقيقة أنه انتخب بأصوات معسكر، التجانس فيه أقل من التجانس بين السييرت متكال [وحدة العمليات الخاصة في هيئة الأركان] ويولي تمير، بل إن محاولته تعبئة "معسكر جنود الاحتياط" بمساعدة التحريض ضد المتدينين الحريديم ("شعب واحد، خدمة علم واحدة") كانت إصراراً أعمى على عدم فهم أن نظام القيم "كلنا يذهب إلى الاحتياط" لم يعد ساري المفعول، وأنه في أية حال ليس أقوى من عداء اليهود غير الأحوساليم للنخبة الحاكمة. لهذا السبب فشل هذا التحالف. إن كيمرلينغ يعدد التصدعات التي ظهرت في حكم النخبة الأحوسالية: غوش إيمونيم، المتدينين الحريديم، الشرقيين وشاس، الهجرة من روسيا، العرب المسلوبي الحقوق. هذه الجماعات كلها أنشأتها النخبة الأحوسالية، أو، بتعبير أدق، فإن إنشاءها كجماعات تابعة للنخبة ومعتمدة عليها، جماعات تشكل احتياطاً من المقترعين في مقابل الولاء لها، حوّلها إلى قوة تحررت في مرحلة ما من الحاجة إلى تقبيل يد الأحوسالي.

بيد أن كيمرلينغ متفائل لهذا السبب بالذات. إنه يكرس جزءاً مهماً من كتابه لعرض اقتراح بديل: بناء دولة متعددى الثقافات، لها نشيد وطني جديد، وعلم جديد، وجيش محترف لا يُسمح لأفراده بدخول الحياة السياسية. إن كيمرلينغ شخص ليبرالي صادق وحقيقي، وقليل الثقة

بالمقولات الراديكالية. وقد خضنا كثيراً من المجادلات الحادة بواسطة البريد الإلكتروني. لم ألتق قط شخصاً شديد التفاؤل مثله.

هذا الزمن زمن رديء للفكر النقدي، أو هكذا يبدو الأمر أحياناً. إذا نظرنا إلى "اليساريين" على أنواعهم، ممن يملأون أعمدة الصحف بكتابات ضد الكتابة النقدية، يجوز الظن أن شيئاً ما جديداً يحدث هنا. والحقيقة أن الكتابة والفكر النقديين لم يكونا في أي وقت من المرغوب فيهما في الأدبيات العبرية، وأنه كان ثمة دائماً "يساريون" ينهشون أعقابهما. كان ثمة أعوام قام فيها أعضاء مبام بهذا العمل. وكان ثمة أعوام قام فيها تلامذة [موشيه] سنيه به. واليوم يقوم به "نشطاء سلام" سابقون، بعضهم تتلمذ على يد مبام أو سنيه، وبعضهم الآخر كان من "اليساريين القدامى ممن اهتدوا إلى الحقيقة أخيراً." ومهما يكن من أمر، فإن الدولة، كبنية تعمل ليل نهار على الدفاع عن شرعيتها، قد مولت "حراس الأسوار" باستمرار. وهذا التقسيم للعمل يجرّد طبعاً مفهوم "الوعي الحر" من الهالة المقدسة المحيطة به. لكن القرن الثامن عشر ولى منذ زمن بعيد.

هذا، ومن ناحية صدور الكتاب في زمن يعتبر النقد فيه رديئاً، فإن مؤلَّف كيمرلينغ المتسم بالصراحة هو نقطة ضوء في الظلمة. لقد بدأت سلسلة "الإسرائيليون"، التي يرئس تحريرها غدعون سامت، بالصدور قبل بدء الانتفاضة الثانية، وهي تشكل أعمق تراجع لما كان يسمى "معسكر السلام" (شرط أن يكون ضد بيبي [نتنياهو]). إن بعض المنشورات التي صدرت في هذه السلسلة يلبي حاجة القراء في زمن "التعب": كثير من المداعبة للنزعة النرجسية؛ استجابة لهاجس الاشتغال بـ"أنفسنا"؛ "من نحن؟"؛ "ماذا نحن؟"؛ "إلى أين نسير؟"؛ "ما المشترك بيننا: الفجيعة أم ألمانيا أم الصهيونية؟" وفي هذا الصدد، فغن عنوان كتاب كيمرلينغ ومضمونه يشكلان نقيضاً تدميرياً للسلسلة. فالكتاب يظهر في سلسلة "الإسرائيليون" ويعلن بصوت عال: "أي إسرائيليين؟". إن المصطلح الذي ابتدعه كيمرلينغ، "الأحوساليم"، وثيق الصلة بالعلاقة بين هذا الكتاب وهذه السلسلة.

يتسحاق لاؤور

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx